

الهوية الثقافية وتجليات صورة المرأة في رواية "بوابة الذكريات" لآسيا جبار: مقارنة
سوسيوثقافية

Cultural Identity and Manifestations of the Image of Women in the Novel "Gate of Memories" by AssiaJebbar.

* فاطمة الزهراء شايب

Fatima Zahra Chaib

جامعة الجزائر -2 - أبو القاسم سعد الله / الجزائر

university Algiers- 2- Algeria.

.fzchaib@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2021/06/02	تاريخ القبول: 2021/01/12	تاريخ الإرسال: 2020/11/05
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

يأتي هذا المقال في محاولة منّا لرصد تجليات الهوية الثقافية في صراعها مع الآخر خلال الحقبة الكولونيالية من خلال الخطاب الإبداعي النسوي لآسيا جبار في رواية "بوابة الذكريات" والتي تعدّ سيرة ذاتية للكاتبة. راصدين أهم التمثيلات الثقافية والاجتماعية المشكّلة لصورة المرأة الجزائرية. ولتحقيق هذا الهدف تمّ الاعتماد على منهج نظرية التفاعل الرمزي في تحليل الأنساق الاجتماعية كأداة للإجابة عن تساؤلات الدراسة ومن ثمّ الوصول إلى نتائج شكّلت صورة للمرأة في الخطاب النسوي المكتوب بالفرنسية، صورة اختزلت الثقافة الموروثة عبر الأجيال وتناقضتها، لتضع المرأة في موضع التشبيء، تلاحقها النظرة الدونية في ظلّ مفهومي السلطة والخضوع.

الكلمات المفتاح: الهوية الثقافية، صورة المرأة، المركز، الهامش، الكولونيالية، الخطاب النسوي.

Abstract :

Our study focuses on the female discourse produced during the colonial era of the famous novel by AssiaDjebar, a sociolinguistic approach, with the aim of deciphering the meanings which encompass the image of the Algerian woman in society, according to the socio-cultural representations and the contradictions which reflect the cultural identity in its relation to the Other and the processes of domination that underlie this relationship.

* فاطمة الزهراء شايب fzchaib@yahoo.fr

Keywords : female discourse, cultural identity ,feminist, linguistic identity, sociocultural, representations.



مقدمة:

تشكّلت الرواية الجزائرية بالفرنسية في بيئة خاصة تميّزت بهيمنة الاستعمار في شتى مناحي الحياة ونتيجة لتلاقح بعض أبناء الجزائريين في المدارس الفرنسية، تمكّن المثقف الجزائري بعد قطع أشواط كبيرة من عبر بوابة الثقافة التي منحتها الولوج إلى التيارات الفكرية والفنية الغربية، ليزيد من تعميق نظرتة وتحليلها وفق مسالك جديدة حدائية عصرية، في وقت كانت الثقافة العربية تعيش مخاضا عسيرا للنهضة التي شهدتها نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين

إذ تمكنت الرواية الجزائرية - رغم قلة المبدعين - من صياغة سردا خاصا جديرا بالدراسة والتحليل، يعكس نظرتة لتحليل الواقع. سردا يختزل تلك النظرة للحياة والذي سنتاوله بالدراسة لرصد الهوية الثقافية واللغوية. وليس غريبا أن يكون سؤال الذات قد شكّل موضوعا محورياً اشتغلت عليه النخب العربية في تلك الفترة والجزائرية على السواء، في تساؤلات تجاه الآخر تحورت من خلالها الروايات مع البدايات الأولى لظهور الكتابة الإبداعية في الجزائر. فكان وجود الآخر دافعا قويا لتفجير تلك الأسئلة المتعلقة بالهوية كزّدة فعل سياسية إزاء الأجنبي أو بالأحرى الاستعمار الكولونيالي أكثر منها ما كانت تعكس نموًا روحيا ومدنيا خاصا. فكان المسمى "الآخر" سببا رئيسيا في إحياء الفضول المعرفي من سباته الطويل وإيقاظ أسئلة الهوية. فجاء سؤال "من نحن؟" مسلما به حتى قبل أن يدخل الاستعمار بأشكاله المختلفة الذي عرفتة الشعوب العربية (كانتداب أو وصاية أو استيطان) ليحي من جديد ذلك القلق من السببات الحضاري.

وعدّت جلّ الكتابات الإبداعية مسايرة والتطوّر التاريخي للواقع العربي إبان الاستعمار الأوروبي وبعده، ما جعلها رواية أقرب إلى التاريخ وإلى الواقع. وشاهدة على أحداث عصر بكلّ تناقضاته ومقوماته الثقافية والفكرية والقيمية. وتعدّ رواية "بوابة الذكريات" لآسيا جبار من

أهمّ الكتابات النسوية الجزائرية لتوثيقها تطوّر المجتمع الجزائري في صراعه مع الحضارة الوافدة بشتى أشكالها والممثلة في ثنائية الخاضع والمسيطر والمتجلية في المقاومة حفاظا على الموروث الاجتماعي والثقافي واللغوي كهوية أصيلة تمنع الجزائري من الانعتاق والتميّع في قوالب الاستعمار الثقافية المسيطرة. وستطرق لعرض بعض النماذج من روايتها لرصد التحولات الثقافية المرتسمة في قِيم المجتمع الجزائري أثناء صراعه ومقاومته للحفاظ على الهوية العربية والإسلامية والأمازيغية على حدّ سواء. ثمّ نستخلص أهمّ التمثيلات اللغوية والثقافية السائدة من خلال اللغة الفرنسية التي كتبت بها جبار وعبرت من خلالها عن قلق مجتمع عربي يختلف عن المجتمع الفرنسي ويحاول التآقلم مع الظروف الحضارية الجديدة التي فرضها الاستعمار. فجاءت إشكالية البحث كالآتي: كيف عبرت المرأة الكاتبة عن هويتها الثقافية في ظلّ الصراع القائم بين المسيطر والخاضع إبان الاحتلال الفرنسي؟ وكيف تمثلت صورة المرأة من خلال روايتها؟

ومحاولة منّا الإجابة عن الإشكالية اعتمدنا على المنهج الوصفي الاستقرائي المعول عليه في الدراسات اللسانية وأيضاً النظريات الاجتماعية الموسومة بالتفاعل الرمزي في تحليل الأنساق الاجتماعية لعالم الاجتماع الأمريكي جوفمان أوفنج¹ بدأ من مستوى الوحدات الصغرى micro كمنطلق لفهم الوحدات الكبرى بالتطرق إلى وصف سلوك الأفراد عبر اللغة والمعاني والصور الذهنية ونظرية الصراعات الثقافية لعالم الاجتماع الفرنسي بيير بوبرديو.

1-تعريف الهوية الثقافية

مصطلح الهوية الثقافية الذي يعني سائر الخصائص والمميزات والمكونات الفكرية والاجتماعية والتاريخية التي تتفرد بها ثقافة ما، تمتلكها جماعة بشرية ما، تتميز بها هذه الثقافة عن غيرها من الثقافات الأخرى، وتحدّد ماهية الجماعة البشرية الأخرى. والثقافة مثل سائر المعتقدات والعلوم والفنون والآداب والأعراف والعادات والقانون والقيم الاجتماعية وغيرها التي تؤثر في تكوين الفرد في حياته منذ الولادة حتى الوفاة. "تقوم علاقة الثقافة بالهوية ودور كل منهما في حياة الإنسان على التأثير والتبادل بينهما، والهوية تدلّ وتعبر عن ماهية وحقيقة الكائن إنسانا كان أو غيره، فردا كان أو جماعة وتحدّد المكونات والخصائص التي تميّزه عن غيره، ولا توجد في غيره ولا توجد في دوّنها، والثقافة والهويات الثقافية متعدّدة بتعدّد المقومات التي تقوم عليها الهويات مثل الدين واللغة والعرق والتاريخ والماضي والمصير المشترك وغيره"²

وإذا كانت الهوية تدل على الماهية والثقافة تدل على ماهية الإنسان فكيف وثقافيا وحضاريا فإنّ الثقافة تدل على الثقافة وتعبر عن مكوناتها وعناصرها، فللكلّ ثقافة هوية وبمقدار تعدّد الثقافات تتعدّد الهويات وتتباين، فالثقافة هي علة وجود الهوية، لأنّ الثقافة تصنع الهوية "الثقافة تنتج الهوية وتصبغها بخصائصها ومميزاتها وتتطور الهوية بتطور الثقافة أي تتأثر الهوية بالثقافة أي الهوية الثقافية سلبا أو إيجابا" ³. والهوية الثقافية هي الثابت والدائم في ثقافة ما تملكها جماعة بشرية ما بما تتمسك وبها تتميز عن غيرها، فالنظام الثقافي الموروث يمكن أثره في عناصر الثبات التي يسبغها على الهوية وعلى عناصر التجدد المسموح بها وفق قابليتها على التماثل ووفق متطلبات الحاضر والراهن. ووفق أيضا مما يفرضه من خيارات التلبس الشخصية لهذه المنظومة التي تمثل مؤسسة اجتماعية يتمثلها كل فرد بطريقته لأنّ " حال الثقافة كحال اللغة إذ يمكن أن ندرك الثقافة بنفس الطريقة التي ندرك بها اللغة إذ تشمل اللغة على قواعدها الخاصة وصيغها المختلفة وهي كاللغة لأنّها تنطوي في ذاتها على صور إدراكية للعالم والكلمات وهي أيضا كالتماثل الثقافية، إذ تشكل فئات إدراكية متقطعة للعالم الخارجي. "

2- الهوية الثقافية في مجابهة صراع السلطة "الأنا والآخر" .

تعدّ رواية "بوابة الذكريات" نموذجا قيميا يصوّر من خلاله المجتمع الجزائري في الفترة الممتدة من ثلاثينيات القرن إلى قيام الثورة التحريرية. إذ ترصد آسيا جبار صورا تحكمها التناقضات وهي تسرد لنا بعض من ذكرياتها في القرية بشرشال في المدرسة والإعدادية ثم انتقالها للعاصمة مع أهلها وكيفية التحوّل التي شهدته أمها. وهي بداية مسّت بعض الأسر العاصمة التي تأقلمت مع المجتمع الأوروبي فانتحت نحو تقليد نمط عيشه بدأ من المدرسة وتعليم البنات إلى نزع "الحايك" لدى الفتيات الشبابات وخروجهن دون ذلك الغطاء الذي فرضته التقاليد والتحرّر منه ومن الحرّيم المطوّق لحرّيتهنّ وجمالهنّ، فالرواية سيرة ذاتية تروي فيها آسيا جبار جانبها مهما من طفولتها ومراهقتها ومراحل دراستها وصولا إلى الجامعة، وفي غضون هذه المسيرة تكشف جوانب عن مجتمعين مختلفين، تصوّر من خلالها غربتها محاولة إثبات لهويتها التي تقول أنّها تتأرجح بين الميل إلى الجانب الأوروبي تارة والميل إلى الطرف الجزائري تارة أخرى مشيدة بدور والدها في تعليمها واكتشافها عوالم أخرى ما كانت لتكتشفها لولا الشعر الفرنسي واللغة الفرنسية التي كانت وقاء لها من أذية ونظرات الجزائريين وهي تتحوّل في شوارع العاصمة بلباس

أوروبي دون "حايك". ومع ذلك تعبر عن هذا النفور والرفض الجزائري لخروج المرأة سواء للتعلم أو للتجول ولاسيما إذا كانت سافرة وغير محجبة كما تقول. فهي لا توجد لذاتها فقط بل تتجلى في الخارج بمعنى أنها موجودة علنا وظاهرا يراها غيرها وهذه الكثافة التي تتصف وجودها أو كيانها الخارجي الذي تتمتع به إنما هو دليل على هوية جسدها ككيان مادي مرئي يحاول الآخر طمس معالمه بحجره أو ستره فجسدها من باب صميم وجودها "فالمعيار الجسدي ليس غريبا بطبعه على إشكالية الهوية الذاتية لما كان الانتماء الجسدي إلى الذاتي عينها يشكل الشهادة القوية لصالح عدم اختزال الهوية الذاتية إلى الهوية العينية" ⁴.

- "أجل أنا ضعيفة في اللغة العربية الفصحى لم أستطع أبدا أن أتعلّم لغة الأمّ كما تمنيت" ⁵

- "نمشي أبي وأنا أنا الظلّ الصغير بخطى غير مأمونة تكاد تفقد التوازن ولكن أبي هو الذي يدرك الخطر بين مجمع الآخرين ومجمع الأهالي ومع ذلك فإنّ اللغة لغة الآخرين هي التي تظنّ درعه حتى وإن قيض له الذهاب عند البقال القبائلي ولعب الدومينو والعودة إلى استعمال اللغة العربية دون لثغ حرف الرء بالفرنسية وأحيانا بتأتأة سرعان ما يسيطر عليها" ⁶

- "كلا إنّ المستعمرة هي قبل كلّ شيء عالم مقسّم إلى قسمين نحن الذين نبي لأتّنا هدمنا (لم نهدم كلّ شيء بل تقريبا كل شيء) وقبل تهدمنا كانت معاركنا تجرّ ذكرى مجيدة مزعومة،... هذا المستتر ينظر إلينا.. الوقت انشطر هناك ديمومة وتاريخ لهؤلاء وديمومة أخرى لأولئك" ⁷

3- رمزية الهوية الثقافية والهوية اللغوية في رصد صورة المرأة :

تقوم علاقة الثقافة بالهوية على طبيعة ودور كل منهما في حياة الإنسان وعلى التأثير المتبادل بينهما. وتتجلى الهوية في كونها مجموع ما يتم إسقاطه على أجسادنا من التصورات لأنّ "المهم والأساسي هو الفكرة القائلة بأنّ الهوية تقوم على حادثة إضافية بالنسبة إلى الاستمرارية المادية الجسدية أو النفسية" ⁸. فالتبدّل الذي طرأ على المجتمع الجزائري في لباسه ونمط عيشه وسلوكياته خارج المنزل ولكنات النطق وغيرها أمّا يدلّ على تطوّر في بعض مضامين الهوية الكلية سواء كان ذلك عن طريق القناعة أو عن طريق التقليد لأجل القبول من المجتمع الوافد والصراع الوجودي الذي ترتب من تضارب نظامين متناقضين يشكلان في مجملهما مصدرا

للهوية. "فالموروث الثقافي ظلّ مسيطرا في احتكار السلوكيات التي ترجمتها تصرفات الأب داخل بيته مع أولاده بالرغم من حصوله على نصيب من التعليم الفرنسي والتوجس من انصهار ابنته في المجتمع الغربي لذا ظلّ يلاحقها بسلطته في كلّ مكان وأضحى كالظلّ يعكس صورة المجتمع الذكوري الجزائري في شكله البطرياركي وبالرغم من تناغمه مع ثقافة الآخر بمنح حرية التعليم للفتاة إلا أنّ تلك الحرية تبقى محصورة وخاضعة للمراقبة الأبوية وفق شروطه هو. وما هذا "الهو" إلا انعكاس لمجتمع اختزل كلّ ثقافته وأعرافه ومعتقداته في سلوكيات مماثلة لدى الجميع، والذي تقل حدّته من شخص لآخر، بحسب درجة اندماجه الفكري في المجتمع الغربي. بالرغم من تلقيهم تكويننا معرفيا فرنسا خارج عن نطاق هويتهم الثقافية المتوارثة، إلا أن "حدّة الصراع والتضارب تتجلى في الكثير من الممارسات اليومية التي يعكسها السلوك الأخلاقي واللغوي في شكله الرمزي ما أدى لديهم إلى تشكيل ازدواجية في الشخصية. شخصية معنية بالمخزون الثقافي باعتباره هوية انتماء، وشخصية معنية بالنظام المعرفي باعتباره هوية تجسّد. والتي عكستها صورة الأب في رواية "بوابة الذكريات"، "كنت مرئية واندهشت جدّا للأمر ذلك من شدّة عيشي بين نساء محجبات ومقنعات غارقات تحت الصوف والحرس، كنت أتصوّر أني غير مرئية أريد أن أقول: حقا أنا مرئية وحاضرة في العالم الآخر، عالم الثانوية والداخلية، وحتى رجال الشارع، ومرئية بالنسبة إلى العالم الأوروبي الذي كان يظنّ أنّه يرانا، ولكن دون أن يرانا حقا بما أني كنت في كلّ الأحوال أشعر بأنّي أنتمي إلى جهة أخرى"⁹

- "كنت أتقدّم خافضة العينين ويحمر وجهي حين يعتقد بأنّي أوروبية كان يستحسن عدم التحدّث بلغة الأمّ كما لا ينبغي استعمال هذه اللغة مع شخص عربي فسرعان ما ينبري يفحصك. فإنّ الاحترام الذي يكنه للأوروبية أين كان سيتحوّل إلى عدوانية إزاء فتاة شابة من مجموعته سيحملك فيك ويقول: فاجرة، دون حابك.. لا مجال للكشف عن نفسك أمامهم"

10

" هؤلاء الذكور الذين تتراوح أعمارهم ما بين 7 أو 70 يجترمونك وحتى وإن ابتسموا لك فلاّتهم يعتقدون أنّك أجنبية أو عابرة سبيل أو من الطائفة المقابلة ولكن أن يعرفوا بأنّك من ذويهم ومتحرّرة فهذا غير معقول في نظرهم في حين أنت وجه الفجر ولا يدروكون ذلك "¹¹.

- " بعد طردي أتوجه تعيسة إلى الشوارع التي توصف بالأوروبية وكأنني أمسيت أجنبية حقيقية في جميع أرجاء هذه العاصمة "12. "علما بأنّ الشواطئ بالنسبة إلينا محظورة علينا بشكل مزدوج، بما أنّها مخصصة للأوروبيين من أغناهم إلى أفقرهم، وكذلك لأنّ الرجال عندنا، وإن افترضنا قبولهم "هناك"، فإنهم أنفسهم سيشعرون بأنّ ظهور بناتهم وزوجاتهم بلباس البحر بمثابة فظاظة وعدم لياقة "13. تدرك آسيا جبار مدى تأثير النظام المعرفي في تشكيل الهوية وقراءة الثقافة. أمّا النظام الثقافي الموروث فيتجسد أثره في عناصر الثبات التي يطبعها على الهوية، وعناصر التجدد التي يسمح بها من حيث قابليتها للتمظهر وفق متطلبات الراهن والعصر. ووفق خيارات تلبس الشخصية لهذه المنظومة والتي تتمثل مؤسسة اجتماعية يتمثلها كل فرد بطريقته، لأنّ حال الثقافة كما هو حال اللغة، فمثلما تتشكل من رموز لغوية تنطوي في ذاتها على صور إدراكية للعالم والكلمات وكرمز ثقافية تحلّل العالم الخارجي إذ تشكل فئات إدراكية متقطعة للعالم الخارجي. وهو ضرب من الخطاب الخفي للجماعات الخاضعة التي تميل إلى خيارات معينة وحيل أو ممارسات سرّية، من شأنها أن تعبّر عن عدم الرضا بهذه العلاقة ولكنها تتكئ في شكل مقاومة سلبية للأخر (سواء كان استعماراً أو سلطة اجتماعية تفرزها الطبقة أو حتى داخل المجتمع الواحد من خلال الأدوار الاجتماعية) كاشفة عن كيفية تعايش الخاضع مع السلطة المهيمنة من جانب آخر ما يؤول إلى إفراز اقتصاد أخلاقي رمزي يعكس عن دور الفاعلين في ضوء مفهوم الصراع الاجتماعي أو الطبقي السائد. وهذا الخطاب السري الخفي حسب نظرية جوفمان ما هو إلا شكل من أشكال تفاعلات الحياة اليومية للفاعلين في يد السلطة المهيمنة سواء كانت سلطة أبوية بطرياقية أو سلطة كولونيالية امبريالية، ما يؤول إلى إفراز نوع من الثقافة التحتية الانشقاكية أو ما يسمى بالمقاومة السلبية كنوع من أنواع التمظهر الطبقي في ضوء المعايير الاجتماعية الجديدة التي فرضتها الهيمنة الاستعمارية والتي تدير ظهرها لحق الأهالي (الخاضع) وتقف في صف الكولون (المسيطر)

" أنا من عندكم، أنا مثلكم وبالطبع كان من شأنهم أن يسخروا مني أو يشتموني والحال أنّ عطش اعترافهم هو الذي كان يؤرقني، بعد طردي أتوجه تعيسة إلى الشوارع التي توصف بالأوروبية وكأنني أمسيت أجنبية حقيقية في جميع أرجاء هذه العاصمة "14. "كنت أودّ أنا المرتدية تنورة قصيرة أن أعترف جميع ذكور عشيرتي "15

يعكس النموذج أسمى صوّر الصراع المفوضي إلى الاغتراب أحيانا بعد الرّفص من لدن الطبقة نفسها إذ كان قبولهم لها وهي تتحوّل في أنحاء العاصمة واستقبالهم باحترام بالنظر إلى هندامها الأوروبي الأنيق مقبول (شكلا) على اعتبار أنها أوروبية. ولكن بمجرد ما تحدثت بالعربية تلقت كلّ أنواع الشتائم والإهانات لمخالفة شكلها أي طريقة لباسها شكل نساء الجزائر في الغالب واللواتي كنّ يقبعن تحت "الحايك" أو الحجاب أثناء الخروج إلى الخارج مع الحرص على عدم التّكشّف للأجانب حفاظا على التقاليد السائدة ما ينم عن استمرار ثقافة الحجر للنساء. ما ولد لديها توجس من أبناء جلدتها وهي مرتدية الزيّ الأوروبي في مدينة حضرية ذات طراز أوروبي. فكان الاختفاء وراء اللّغة الفرنسية ضرب من حماية لها ووقاء من أبناء جلدتها أو وقاء من نظرتهم الازدرائية وهم يرون تحوّلًا بمس المجتمع الجزائري، ويسمح للمرأة بولوج فضاءات خارج فضاء المنزل أنّه ضرب من الرّفص لكلّ أصناف الحرّية ولو كانت في شكلها الجزئيّ الخارجى فيما يتعلّق الأمر بجسد المرأة. فالخطاب العلني كشف عن هويتها الجزائرية وأبرز علاقات صراع بينها وبين أبناء جلدتها أذى بهم إلى رفضها كامرأة متشبهة بالأوروبيات ومنه تجلي خطاب الخضوع في شكله الطبقي المنم عن صراع ثقافي لا يتأتى إلّا من خلال أفعال واضحة أو مجموعة من التصرفات المستمرة التي تأتي إمّا ملفوظة أو تحتيّة وتتمظر دائما وراء السلطة بمختلف أنواعها كسلطة ذكورية أو سلطة استعمارية. حيث تظهر الخاضع مكرها على الفعل من أجل البقاء والاستمرار. إنّ نوع من استلاب الذات أمام أفعال السلطة بنوعها .

نجد أسيا جبار في روايتها تقدّم صورة للصراع اللّغوي والهوياتي القائم في الفترة الكولونيلية في ما يعرف بالمقاومة السلبية لدى جوفمان. تتمثل في الممارسة المتعسفة لمديرة المدرسة في حرمانها من تعلّم اللغة العربيّة ما نجم عن تلك الممارسات خطاب مستتر جاء كرد فعل عن الخطاب العلني المهيمن والذي هو نتاج لثقافة تحتية تعكس السلطة الاجتماعية المدافعة عن المصالح الكولونيلية. فالممارسة العقلانية لكلّ من المسيطر والخاضع أفرزت وعيا ذاتيا حتى وإن لم يتقاطع وشروط الوجود إلّا أنّه إلى حدّ ما يؤدي إلى خلق توازن ما يعكسه الوعي المسلم أو العقلاني والذي يتمظهر في قبول واستمرار علاقة السيطرة بحيث تكون مستقرة داخليا ولكنها تقاوم تلك السيطرة خارجيا من خلال حبها للغة العربية والشعر الجاهلي والصوفي والغناء الأندلسي والموشحات والطرب العربي...، واستثمار بعض الأسماء العربية الإسلامية كعلي

وفاطمة ومحمد في مؤلفاتها، كاستمرار للوعي الذاتي والهوياتي. وتسرد في أكثر من مقطع كيف كانت شغوفة بالشعر الجاهلي لدرجة أنها أحبت شابا كان يترجم لها المعلقات الجاهلية وينقل لها أشعار الحلاج والتبريزي... إلا أن هذا الوعي يبدو مزيفا إلى حد ما في حضرة السلطة ووعيا حقيقيا في غياب السلطة. " إنَّ التركيز على مفاهيم الهوية من حيث توصيفها، وتمظهرها ومصادرها، يأتي في سياق التأكيد على أهمية المسألة اللغوية في صياغة مقومات الهوية، فلا الهوية ممكنة التحقيق دون لغة ولا اللغة يمكنها الحياة دون هوية. بتعبير آخر، اللغة ليست هوية خالصة مكتفية بذاتها، والهوية ليست وجودا ماديا تبرز ملامحه من خلال ذواتها، بل الهوية عناصر واللغة وعاء تتجسد من خلاله " ¹⁶ اعتبارا من أنَّ اللُّغة أداة للإدراك، فحري بنا القول أنَّ بواسطتها يتم بناء تصوراتنا للعالم، ومن هنا لم تعد اللُّغة وسيلة سلبية لنقل الأفكار والمفاهيم السابقة والقبلية الراسخة في عمق كيان موروثنا الثقافي، ما يؤدي إلى بروز شخصية المبدعة المبتوثة بين السطور من خلال فعل الكتابة ويكون هذا التباين والتشابك بين الثنائية هو سبب في ولوج قضية التحيز الجنسي، الذي بدوره يتطلب مبادرات جمة وحادة في إعادة النظر في الكثير من المنطلقات السائدة، ولاسيما في تلك الأفكار الرائجة التي كرسَتْ ثقافة الأدوار بين الرجل والمرأة فجعلت الفحولة والعقل حكرا على الرجل وخصصت العاطفة والهوى للمرأة. فعلاقات القوى في إطار أي نظام اجتماعي ترتبط بشكل خاص بعلاقات السيطرة التي تفرضها معايير القوة أي القوة بشكلها المادي أو حتى بشكلها الرمزي في غضون ما تنتجه الأشكال الرمزية القائمة تحت أي تنظيم اجتماعي. " كنت أود أنا المرتدية تنورة قصيرة أن أعترف جميع ذكور عشيرتي.. أنا من عندكم، أنا مثلكم وبالطبع كان من شأنهم أن يسخروا مني أو يشتموني والحال أن عطش اعترافهم هو الذي كان يؤرقني " ¹⁷ / - " كنت أظن أن تلك السيدات كلما تعازلم اعترافهن كانت ذاكرتهن أقدر على المقاومة مثل شجرة الصبار " ¹⁸ / - بالكاد بدأت أفهم أن أخطر الأمور هو صمتي.. صمتي عن هذه الغريزة التي رغما عني وبي، كانت طور الإعداد " ¹⁹

تبدو التماذج صورة لواقع المرأة الجزائرية القابعة تحت نير السلطة الأبوية المهيمنة بثقافة الفحولة أتم صور نمطية متكررة لصورة المرأة الضعيفة المنتجة من خطاب الرجل والمرأة في قصة خلق آدم وحواء منذ العهد القديم، والذي يكون قد ترك رواسته في تمثيلات الحياة المختلفة، وفي

صوّر متعدّدة، ارتسمت بسمة الضعف والخضوع للرجل " فرسب في الذاكرة تفوق الرجل وحضوره، وتراجع المرأة عن الفعل والشهود، مما جعل الخطاب يتحدث عن مطلق المرأة / الأنثى ويضعها في علاقة مقارنة مع مطلق الرجل / الذكر، وحين تحدد علاقة ما بأثما بين طرفين متقابلين أو متعارضين، يتعيّن ضرورة خضوع أحدهما للآخر، واستسلامه له ودخوله طائعا منطقة نفوذه، فإنّ من شأن الطرف الذي يتصوّر نفسه مهيمنا أن ينتج خطابا عنصريا بكلّ معاني الألفاظ ودلالاتها²⁰. الأمر الذي أدى إلى بروز التحيّز الجنسي بين الطرفين اعتبارا من مركزية العقل والمكانة للرجل والصاق العاطفة والهوى بالمرأة ما بعث على التّفكير في إعادة إرساء مبادرات لتعديل المنطلقات السائدة والأفكار الراسخة عن الذكورة والأنوثة على حدّ سواء. سبيلها في ذلك اللغة التي تعدّ تعبيرا عن الثقافة السائدة العاكسة لقيّم وثقافة المجتمع المتنامية في محيط اصطليغ بفكرة أسطورية تمجد الذكورية وتهمش الأنوثة. واللغة بحكم وسيلة تواصلية تحمل مفاهيم وقيّم وثقافة، وصور المجتمع أنّها وسيط متغيّر مع أنّها محايدة في مستوياتها ولكنّها تتلون وتتقلب بأطر استعمالها المعرفية والاجتماعية. و يعتمد تغييرها على تغيير السياق التاريخي والاجتماعي لذلك الاستعمال. " فإذا كان هناك تحيّا فإنه ربما لا يعود إلى اللغة بقدر ما يعود إلى الثقافة النحوية التي من المحتمل أن تكون قد مالت إلى الذكورة²¹. وبهذا تكون الذاكرة الجماعية منحازة إلى الرجل الذي صورته معيارا للإنسان وجعلت من المرأة انحرافا له أو فرعا منه. بدأ من الفكرة الدينية التي تركزت بسطوة ثقافة ذات لغة قد أسهمت في إقناع المرأة بضعفها وعجزها عن الإبداع، فعدت أداة طيعة خاضعة للنظام السائد الذي شكّل بنيتها الفكرية والثقافية. فعدت رمزا له إجماعه منذ القدم، أخضعها لنمطية لا تخلو من أن تكون كائنا هامشيا على طرف الحياة والمشاركة الاجتماعية والسياسة والثقافية الابداعية. ما انكفأ أن يعدو فضاءا في خدمة الرجل في قالب لا يتعدى الجانب الوظيفي البيولوجي، فاخترت في المتعة والتناسل بفعل طغيان الرمز المعنوي الذي تركزه القيم المتوارثة الوسط الاجتماعي والحامل لكلّ الدلالات السلبية التي من شأنها أن تحوّل المرأة من كائن فاعل إلى كائن مفعول فيه بفعل سطو المهيمن على المهيمن عليه. " إنّ الخضوع والسلبية والضعف والمازوشية (حبّ الإذلال) ليست صفات للمرأة ولكنّها تصبح صفاتها من أثر الاضطهاد الاجتماعي الطويل²². وخوف الخاضع من الخروج عن العلاقات القائمة بينه وبين المسيطر يجعله يبذل أسلوبا آمنا وسريّا أحيانا

من وجهة نظرهم من أجل تأمين أوضاعهم وإشباع احتياجاتهم ومن خلال سلوك هذا الدرب واتخاذ من النهج السريّ مسلكا للتعبير عن شخصيته فإنّ الخاضع أي المرأة في هذا الشأن تكون قد شرعت في التعبير عن عدم رضاها تجاه ممارسات السلطة الأبوية المهيمنة، إذ تظهر سلوكا مغايرا أمام السلطة وسلوكا آخر في غياب تلك السلطة الرقابية، وهو ما يطلق عليه جوفمان بالعبودية التطوعيّة التي تفرز أشكالا من المقاومة السلبيّة تكسف عنها في مواجهة السلطة الأبوية خوفا من عواقبها أو درءا لأخطارها الاجتماعيّة. فيبدو الخاضع مكرها على هذا الفعل من أجل البقاء والاستمراريّة فتتبدى مواقف الخاضعين وتمثل في استلاب الذات أمام أفعال السلطة الأبوية. ففي حضورها يغيب كلّ شكل من أشكال الوعي بالذات ليغدو وعيا مزيفا يظهر حقيقيا في غياب السلطة. وتبرز لنا سيطرة المجتمع وهيمنته من منطلق الذكورة لا غي والذي ليس في الحقيقة سوى نتاج لبناء اجتماعي متعلقة بالنظرة إلى الجسد الذكوري كمركزية ذكورية بينما يرى في الجسد الأنثوي مجالا لإعادة الإنتاج البيولوجي. فالتقسيم الجنسي بين مذكر ومؤنث هو من يؤول إلى التقسيم الجنسي للعمل فيقسم الوظائف الاجتماعية فيما بعد، انطلاقا من تصوّر الجسد المكترسة في النظام الاجتماعي بقوة المهيمن على المهيمن عليه، تركيها الطقوس التأسيسيّة الاحتفالية الراسخة في تقديس الذكورة واحتقار الأنوثة بدأ من الختان والاحتفالية بميلاد الذكر مثلا والاشتمزاز من ميلاد الأنثى فالمناسبات الاجتماعية والطقوس الاحتفاليات تكترس من طغيان الذكورة وتشكّل الدعاميّة الأساسيّة في استمرار الذكورة وإقرار لطقس الفحولة وفق البناء الاجتماعي والثقافي للنظام الاجتماعي مؤسسا بذلك لفكرة البناء الرمزي التي تشكل بموجبها التمثلات، ضمن عملية بناء فعلية. وتحميد يكتمل بتحوّل عميق في البنية الفكرية والعقلية لتصوّر الأجساد لاسيما الجنسية منها والذي بدوره يجيد إلى استبعاد كلّ ما يخالفه ولا يشبهه في الانتماء إلى الجنس الآخر. ويشير بيير بورديو²³ "إنّ الاختلافات الظاهرة بين بين الجسم الذكوري، والجسم الأنثوي، والمنظور إليه، والمبنيّة بحسب الترسيمات العمليّة لرؤية المركزية الذكورية، تصبح الضامن المسلّم به تماما للدلالات والقيّم المتوافقة مع مبادئ تلك الرؤية... وإنّ القوة الخاصة لتبرير النظام الاجتماعي الذكوري إنّما تأتيه من أنّه يراكم ويكتف عمليتين: إنه يشرعن علاقة هيمنة من خلال تأصيلها في طبيعة بيولوجية هي نفسها بناء اجتماعي مطّبع " ²⁴. فالخطاب النسوي هاهنا جاء صارخا بالتمييز بين الأنا

والآخر، أي الجنس المختلف في مقابل أنثى/ذكر، كنوع من الاعتراف بالسيطرة الذكورية على الفكر واللغة والثقافة والواقع ثم فرضه كقانون على المرأة التي لم يكن لها سوى الانصياع لنواميس الذكورية عبر العصور. فتشخيص علاقات القوة والسيطرة بين المسودين والسائدين كنموذج للسلطة المادية والرمزية التي من خلالها يمكن تشخيص منظومة العلاقات الرمزية التي تمنح باستمرار بني خاصة وتواصلها فإرضة تفوق جانب على جانب آخر يتسم بالرضوخ والاستكانة وفق ما يسمى بالعنف الرمزي. ففي إطار السيطرة الاقتصادية وملكيتهما فإن مشروعيتها سيادتها عن طريق إنتاجها الرمزي ففي مقابل هذه الطبقة فإن الطبقة الخاضعة تعمل على استمرار خضوعها في عملية مكررة منتجة للرمز من خلال عملية التمثيل في حضور السلطة والتي تغيب في غياب السلطة نوعا ما، في مدار علاقات صراع وغالبا ما يفرض الطرف المغلوب وجوده وفق وعي معين (مزيّف وحقيقي) وفقا لثنائية الظهور والغياب. فتحاول أن تحرّر الدوال التي طفق الرجل يحتكرها ويشفر دلالتها، انطلاقا من مبدأ التذكير الذي اعتبر هو الأصل بناء على الفكرة النحوية التي راجت في الثقافة النحوية العاكسة لتداعيات ماضية رافقت وجود الإنسان" أصل الاسم أن يكون مذكرا والتأنيث فرع من التذكير، وهذا يذكرنا بجوء المشتقة من أحد أضلاع آدم، ولكون التذكير هو الأصل، استغنى الاسم المذكر عن علامات تدل على التذكير. ولكون التأنيث فرعا من التذكير افتقر إلى علامة تدل عليه وهي التاء والألف المقصورة " ²⁵ ونجد هذه الفكرة تستمر بالتنامي والتشابك عبر العصور في الثقافات الإنسانية غير العربية أيضا، وأدى عدم التوافق والاختلاف هذا، إلى بروز قضية التحيز الجنسي، وانطلاقا من هذه الفكرة فاللغة ليست سوى واجهة تعبيرية فقط تعكس ثقافة سائدة راسخة بفعل طغيان الصورة التصنيفية للتقسيم الطبقي لكلا الجنسين. والتي عبّر عنها الخطاب النسوي في الأثر الأدبي لدى آسيا جبار، كنوع من الانتفاضة على واقع ترى فيه عدم التناسب والتكافؤ في الحقوق والحريات فبعض النماذج تقول إلى عدّة سياقات دلالية للصورة الاجتماعية الراسخة في الذاكرة الجماعية وفق بنية نظامية تجعل طغيان الاختلافات الجنسية بين الجنسين في توزيع الأدوار والوظائف، إذ لا تعدو الأنوثة رمزا للعار، وقيدا اجتماعيا توظفه القيم وتسيطر عليه الذهنية الذكورية في صفتها المادية والمعنوية، فإرضة نواميس هيمنة جنس على جنس. والتفنن في وسائل قمع الجنس الأنثوي بدأ من المدرسة والعائلة والتقاليد .

الخاتمة :

إنّ مسألة الهوية تكون قد خاضت الكاتبة فيها وفق منحنيين اثنين : منحى البحث في هوية الإنسان العربي في ظلّ الصورة النمطية التي سوّقت لها الاحتلال والمستشرق الأوروبي من زاوية الحضارة الغربية وذلك من محور التفوّق والسبقية والغالبية المعرفية والحضارة التي أنتجتها الثورة العلمية والثورة الصناعية في عصور التنوير على حدّ سواء. ومنحى آخر يتجلى في الهوية الفنيّة والخصوصية الذاتية التي تفرّدت بها الكاتبة. في كونها برزت كمبدعة، متحركة في أدواتها اللغويّة والفنيّة التي مثلت من خلالها ثقافة مجتمع عربي مسلم مصوّرة شتى أنواع المقاومة الثقافية وصور للمجتمع والمرأة في فضاءات متعدّدة ومتنوّعة. حيث اللقاء والتلاحق اللغوي والثقافي أين يتمّ التعرف بتوجس وخيفة على ثقافة الآخر. وأنّ صورة المرأة هي إعادة إنتاج لثقافة راسخة في صور ذهنية تعكسها دوال لغوية ورموز متداولة وفق لقيم المجتمع المعبر عنها من خلال السلوك الاجتماعي واللغوي.

هوامش:

¹-أرفينج جوفمان Erving Goffman عالم اجتماع وكاتب أمريكي كندي (1922-1982) يعدّ من

أكبر علماء الاجتماع نفوذا في القرن العشرين وهو صاحب النظرية التفاعلية وفهم الذات .

²-البشير ربوح، الشؤال عن الهوية في التأسيس والنقد والمستقبل، ط1، منشورات ضفاف لبنان، 2016، ص262.

³-داريوش شايغان ، أوهام الهوية ، ترجمة : محمد علي مقلد ، ط1، دار الساقى ، بيروت ، 1993 ، ص40.

⁴آسيا جبار ، بوابة الذكريات ، ترجمة :محمد يحياتن ، ميديا للنشر ، الجزائر ، 2007، PDF، ص44.

⁵-آسيا جبار ، بوابة الذكريات ، ص372.

⁶- آسيا جبار ، بوابة الذكريات ، ص109.

⁷-آسيا جبار، بوابة الذكريات ، ص44.

⁸ - Ibid,p158.

¹⁰- آسيا جبار، بوابة الذكريات ، ص334

¹⁰- آسيا جبار، بوابة الذكريات ، ص397.

¹¹-المرجع السابق، ص399.

¹²-المرجع السابق، ص410.

- ¹³ آسيا جبار ، بوابة الذكريات ، ص182.
- ¹⁵ -آسيا جبار ، بوابة الذكريات ، ص410.
- ¹⁵ المرجع السابق، ص406.
- ¹⁶ -بشير ريوح ، السؤال عن الهوية ، ط1، منشورات ضفاف، بيروت ، لبنان ، 2016، ص205.
- ¹⁷ - آسيا جبار ، المرجع السابق، ص410.
- ¹⁸ - المرجع السابق، ص416.
- ¹⁹ - المرجع السابق، ص497.
- ²⁰ -عيسى برهومة ، اللغة والجنس ، حفريات لغوية في الذكورة والأنوثة ، ط1، الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2002، ص78.
- ²¹ -الرفقة محمد دودين ، " اللغة والسياق الثقافي في الرواية النسوية العربية "، في : النساء والمعرفة في العالم العربي المعاصر ، ملتقى دولي ، الجزائر 9-11 ديسمبر 2007، أعمال المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ ، العدد 12 ، وزارة الثقافة ، الجزائر ، ص74.
- ²² -نوال السعداوي ، الأنتى هي الأصل ، مؤسسة الهنداوي ، مصر ، 2017، PDF، ص 36.
- ²³ -عالم اجتماع فرنسي (1930-2002) أحد الفاعلين الأساسيين بالحياة الثقافية والفكرية بفرنسا، وأحد أبرز المراجع الفاعلة في علم الاجتماع الفرنسي .
- ²⁴ -بيار بورديو ، الهيمنة الذكورية ، ترجمة : سلمان قعفراني ، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، لبنان، 2009، ص45.
- ²⁵ -خديجة صبار، المرأة بين الميثولوجيا والحداثة ، أفريقيا الشرق، ص81.